المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتصف بصفات الكمال، المنزّه عن الحلول والانتقال، المتعالى عن الأين والكيف، المتقدّس عن الجور والحيف، لا شريك له ولا وزير، ولا شبيه ولا نظير، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، أحمده حمد حامدٍ معترفٍ بأن الحمد نعمة منه يستوجب الحمد عليها على الدوام، وأبوء بالتقصير على شكر مثقال ذرة من فيض هذا الإنعام، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة قطعية أجعلها عهدًا لى عنده ليوم جمع البرية، وأشهد أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب نبيه ورسوله إلى جميع العجم والعرب (ﷺ) ما ذر شارق وما لمع بارق وعلى آل بيته وصحبه المنتخبين وأزواجه المطهرات أمهات المؤمنين وسلم عليهم أجمعين، وبعد...

فإن القصيدة المنفرجة للإمام العارف بالله تعالى الشيخ أبى الفضل يوسف ابن محمد بن يوسف التوزرى المعروف بابن النحوى، المتوفّى سنة ٥١٣ هـ/ ١١١٩م من المنظومات المباركة التى تستروحها النفوس فى تفريج الكروب وكشف الخطوب من علاّم الغيوب، ولهذا سمّاها التاج السّبكى: "الفرج بعد الشدّة" وقال: "إنها مجرّبة لكشف الكروب".

وقال أيضاً: "وكثير من الناس يعتقد أن هذه القصيدة اشتملت على الاسم الأعظم وأنه ما دعا بها أحد إلا استجيب له".

ودراسة الشيخ ابن النحوى التوزرى من أروع الدراسات وأشقها. فنحن فى مواجهة رجل من كرام الرجال، وشاعر من أغنى من أنتجتهم الأمة العربية والإسلامية على امتداد تاريخها.

وقد تناولت فى هذه الدراسة حول ابن النحوى وقصيدته المنفرجة فتكشّفت لى كنوز قل نظيرها، ومواطن من الجمال والروعة تسحر الألباب، وتسبى النفوس.

والعلامة ابن النحوى التوزرى بحاجة إلى دراسة أعمق وأشمل وأكمل، تعطى لفارس الشعر والعلم حقه، وتوفيه ما أغمطه هذا الحق كُتَّاب وأدباء حديثون وقدماء.

وفى طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكى: نقلا عن «الغرّة اللائحة» أن السبب الذى دعا الإمام ابن النحوى إلى تأليف قصيدته أن بعض المتغلّبين عدا على أمواله وأخذها، فبلغه ذلك - وكان بغير مدينة توزر - فأنشأها فرأى ذلك الرجل فى نومه تلك الليلة رجلاً بيده حربة وقال له: إن لم ترد على فلان أمواله وإلاّ قتلتك بهذه الحربة، فاستيقظ مذعورًا وأعاد إليه أمواله.

وصادفت منفرجة ابن النحوى الذيوع والانتشار وقامت حولها حركة أدبية شرحًا وتخميسًا. وكان أبو الفضل متأثرا بالمنفرجة التى تُنسب للغزالى وإن كان ابن النحوى أسلس نظما وأخصب خيالاً...

ومن المنفرجة المنسوبة للغزالى نذكر أولها للمقارنة:

الشدّة أودت بالمهج ... ياربّ فعجّل بالفرج

هاجت لدعاك خواطرنا ... والويل لها إن لم تهج

وفى قصيدة ابن النحوى، أقرب ما يكون العبد من الفرج إذا اشتدّ البلاء.. وإنما كان الفرج عند شدّة البلاء لأنه يكون مضطرًا، والبارى سبحانه وتعالى وعد المضطرين بالإجابة وكشف السوء، ووعد الداعى مطلقًا بالإجابة.

أخرج الخطيب وابن عساكر عن عائشة (رضى الله عنها) قالت: كن لما لم ترج أرجى منك لما ترجو فإن موسى بن عمران خرج يقتبس نارًا فرجع بالنبوّة، وقال وهب بن ناجية المرى:

كن لما ترجو من أمر أرجى ... منك يومًا لما له أنت راجى

إن موسى مضى ليقتبس نارًا ... من ضياء رآه والليل داجى

فأتى أهله وقد حكم الله ... وناجاه وهو خيرُ مُناجى

وكذا الأمر ربّما ضاق بالمر ... ء فيتلوه سرعةُ الانفراج

وقال محيي الدين بن عربى فى ازدواج كل كائن، ووحدة الله وقد خاض أهل العلوم الروحانية فى ذلك فقال:

إذا يضيق بنا أمر ليزعجَنَا نصبر فإنّ انتهاء الضيق ينفرجُ
بذاك خالقنا الرحمن عَوّدنا فى كلّ ضيق له قد شاءه فرجُ
ألا ترى الأرض عن أزهارها انفرجت كما السماء لها فى ذاتها فرجُ

يبتدىء ابن عربى قائلًا إن لكلّ ضيق فرجًا ولكل أمر مخرجًا، وهو من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولن يغلب عسر يسيرين كما قيل فى الأثر. ثم يضرب أمثال الفرج بعد الضيق بانفراج الأرض عن الأزهار فتوجد بعد أن لم تكن. وتنطلق بعد أن كانت حبيسة فى البراعم والبذور، وكذلك السماء فيها فرجٌ كطرق الأرض ومفارجها.

وأخرج ابن النجار فى تاريخ بغداد من طريق أحمد بن إسحاق بن ابراهيم الأشجعى بمصر، حدثنى أبى عن أبيه عن جده قال: قال على بن أبى طالب (رضي الله عنه):

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصّدرالرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأنّتْ وأرستْ فى أماكنها الخطوبُ
ولم تر لانكشاف الضرّ وجهًا ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوط منك غوثٌ يجىء به القريب المُستجيبُ
وكلّ الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريبُ

وقال المنذرى: أنشدنى أبو العباس أحمد بن أبى القاسم بن عيال، قال: أنشدنى الفقيه أبوالقاسم عبد الرحمن بن سلامة القضاعى فى مجلس درسه. قال: كان الإمام مالك يتمثل بهذين البيتين:

درج الأيام تندرج وبيوت الهمّ لاتلج
رُبَّ شىء عزّ مطلبه قربته ساعة الفرج

وقال منتجب الدين أبو الفتوح العجلى:

إذا ما رأيت فنون البَلاَ وعزّ المحيص لفرط الحرجْ
فلا تحظ إلاّ بصبرجميل فعند اصطبارك يأتى الفرجْ

وقال الفقيه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى ٢٦٨هـ:

إذا ضقت فاصبريفرّج الله ما ترى ألا رُبَّ ضيق فى عواقبه سعهْ

وقال جحظلة:

فلا تيأس وإن صحّت عزيمتهم على الدّلج
فإنّ إلى غداة غدٍ سيأتى الله بالفرج

وقال آخر:

استرزق الله واطلب من خزائنه ولاتكوننَّ ممّا ضقت فى حرج
فأبعد الأمر يا مولاى أقربه وأضيق الحال أدناه من الفرج

وقال الشيخ عبد الغنى النابلسى:

لا بدّ للضيق فى الدُّنيا من الفرج فافتح كفوف الرّجا والْحق بالفرج
واعلم بأنك مفتون ومُمتحن بما لديك من الأبشاع والحرج
والكلّ يذهب إن حزنًا وإن فرحًا فكن إذا ضاق أمرٌ غير منزعج
ولا تبك من كدور الدّهر مُنقبضًا فإنما الدّهر ميال إلى العوج
واظهر البسط فى كلّ الأمور وإن ضاقت عليك فقل يا "أزمة انفرجى"
واشكر على كلّ حال أنت فيه فما عن حكمه قد خلا أمر إليك يجى
واصْبر وصابر لأحكام الإله ولا تضجر وإيّاك فى الدُّنيا من اللّجج

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن العباس الصولى:

ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها مخرجُ
كملت فلمّا استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنُّها لا تفرجُ

قال الصفدى فى تاريخه: يقال إنه ما ردَّدها من نزلت به نازلة إلاَّ فرجت عنه.

وقال الربيع بن سليمان المرادى، صاحب الإمام الشافعى، أورده له الحافظ زكى الدين المنذرى، ورواه ابن عساكر فى تاريخه عن الربيع عن الشافعى:

صبرًا جميلاً ما أسرع الفَرَجَا مَن صدّق الله فى الأمور نَجَا
ومن خشى الله لم ينله أذى ومَن رجا الله كان حيث رَجَا

وقال أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخزرجى:

لاتجزعنّ إذا نالتك موجعةٌ واضرع إلى الله يسرع نحوك الفرج

ثم استعن بجميل الصبرمُحتسبًا فصبح يُسرك بعد العُسر ينبلجُ
فسوف يدلج عنك الهم مرتحلاً وإن أقام قليلاً سوف يدلجُ

وعن الكشكول الكامل للشيخ بهاء الدين الحارثى الهمدانى: من الشعر المنسوب إلى أميرالمؤمنين على بن أبى طالب (رضي الله عنه) فى اليسر والعسر، قوله:

إذا النائبات بلغن المدى وكادت لهنّ تذوب المُهَجْ
وحلّ البلاء وعزّ العزاء فعند التّناهى يكون الفرجْ

وعلى بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ يصبر للنائبات، ولايكون صبره عند أوائلها، فأوائلها هينة، وإنما يصبر عند أواخرها إذا ثقلت وطالت، حتى تكاد المهج تذوب وتنشق القلوب.

وهو يصبر للنائبات وحده، حتى إذا لم يجد من يسلّيه ولم ير من يعزّيه ليقوّى قلبه ويكفكف من دمعه .وهو لا يصبر هذا الصبر ولايقف وحده هذه الوقفة إلا لأنه مؤمن بأن لكلّ شىء نهاية وأن الشدائد لها نهايات يكون بعدها الفرج والمخرج.

وكيف لايكون هذا إيمانه وإيمان كلّ من اتّبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهوالذى بشّر المعسرين بالقرآن وقول الله سبحانه فيه ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولن يغلب عسر يسرين، أويكسر ضعف قوّتين!.

ومن أفواه الصادقين تعرف الحقائق، ومن أفعال الشجعان تُتَعَلّم الجرأة والإقدام. وما لم تتأزّم الأمور بالأبطال لم يدركوا الخروج من المآزق ولم يتعوّدوا الصبر والانتصار.

وقال بعضهم:

دَعْ المقاديرتجرى فى أعنَّتها ولاتَبيتَنَّ إلاَّ خالى البال
مابين غمضة عين وانتباهتها يغيّرالله من حال إلى حال

وقال آخر:

إذا ضاق بك الصدر فصكّرفى «ألَم نَشرَحْ»
فإنّ العُسرمقرونٌ بيُسرقطُّ ما يبرَحْ

ومنفرجة الشيخ ابن النحوى التوزرى تُسمَّى أيضًا بـ «أم الفرج» وبـ «الفرج بعد الشدة» وبـ «النحوية» نسبة إلى قائلها، وهى قصيدة فى الاستغاثة والإلتجاء إلى الله تعالى عند الكوارث والملمّات، قريبة المعانى جدًا. تلائم أذواق عامة الناس، وقد نالت شهرة عريضة فى المشرق والمغرب لخلوص نيّة قائلها، فشرحها كثيرون وخمّسها آخرون، وقد كثراعتقاد الناس فيها وجعلوا قراءتها وسيلة إلى تفريج كروبهم ونيل أمانيهم. وهى من بحرالخبب المرقص القليل فى الشعر. وتفاعيله: فاعلن. ثمان مرات، وسُمى الخبب، لقصرأجزائه، وتقطيع أبياته، يحاكى فى السمع ركض الخيل وخببها.. و«زحافة الخبن» وهوحذف الثانى الساكن فتصبح تفعيلته «فعِلن» بالكسر. وإن سكنت عينه فتيل "بالقطع" فتصبح تفعيلته «فعْلن»، كما يلحقه التذييل. وقد نُسبت هذه القصيدة إلى محمد بن أحمد بن إبراهيم العطار القرشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/ ١١٩٤م[١]، نُسبت إلى الإمام أبى عبد الله أحمد بن محمد الأندلسى القرشى[٢]، ونُسبت أيضًا إلى الإمام الغزالى[٣]، وكان أبو الفضل يبتدى قراءتها بهذا الدعاء:

مولاى ياسيدى يا منتهى أملى ... يا مَن عليه بكشف الضرّ أعتمدُ
أشكو إليك أمورًا أنت تعلمها ... مالى على حملها صبرٌ ولاجلدُ
وقد مدَدتُ يدى للضُّرَ مشتكيًا ... إليك يا خير مَن مُدّت إليه يَدُ

الشرح:

أما سبب شرح البصروى لها، فقد ذكر الرجل أن شدة نزلت بدمشق، وحصل للمسلمين ما حصل من ارتفاع للأسعار وغيره، فجرى فى خلده أن يشرح هذه القصيدة علَّ الله أن ينزِّل فرجه.

---

١. طبقات السبكى ٥ : ٢٤. ٢٥.

٢. الشيخ يوسف النبهانى شواهد الحق فى الاستغاثة بسيد الخلق" ص ٣٦٧ (نقلها من سعادة الدارين).

٣. بروكلمان ١ : ٣١٦.

وقد نصَّ البصروى على أن شرحه مقتبس من شرح النقاوسى المسمى «الأنوار المنبلجة فى بسط أسرار المنفرجة»، وهو ما يشير إليه -أحيانًا- بقوله: قال الشارح، كما فى شرحه للبيت رقم (٣٦)، كما اعتمد البصروى على غيره من الشروح. فهو إذن خلاصة مصفاة من عدة شروح.

والرجل فى شرحه عادة يتكئ على الناحية اللغوية أولاً، فيذكر معانى الكلمات الواردة بالبيت، ثم ينطلق منها إلى المعنى المراد فى البيت، وهو فى شرحه يعتمد على الآيات القرآنية مدللاً على صدق قوله، فذكر نيفا وعشرين آية. كما اعتمد على الحديث الشريف ليثبت صحة رأيه وصواب قوله فذكر نحو نيف وثلاثين حديثا.

ويلاحظ أن الرجل حينما يلجأ لذكر حديث رسول الله (ﷺ)، فإنه - أحيانا- يذكر سند الرواية كما ورد فى شرح البيت الرابع إذ أورد حديثا فقال: «روى الشيخان عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى (رضى الله عنهما) أنهما سمعا رسول الله (ﷺ) يقول.....»

وأحيانا أخرى لا يذكر السند، فيلجأ لنص الحديث مباشرة، كما ورد فى شرحه للبيت التاسع حيث قال: «وفى هذا إشارة إلى الإجمال فى الطلب فقد قال سيدنا رسول الله (ﷺ): اتقوا الله واجملوا فى الطلب».

ولم يكتف البصروى على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة - على الرغم من مكانتهما السامية فى قلوب المسلمين- فلجأ لأقوال مأثورة وحكم منثورة، نذكر منها أقوال للإمام على - كرم الله وجهه -، وأخرى لابن عطاء الله السكندرى ولأبى مدين، وللجنيد، ولأبى طالب المكى، وللحسن البصرى، ولأبى عثمان الحيرى.... وغيرهم.

وقد يلجأ لأقوال لموسى (عليه السلام) أو لعيسى(عليه السلام)، أو ينقل دعاءً مطولاً للخضر (عليه السلام).

ويلاحظ أن البصروى يلجأ فى شرحه لنصوص نثرية، فلم تتزلق قدما الرجل إلى فن العربية الأول الشعر، فلم يقدم لنا البصروى إبداعًا شعريًا واستشهادًا لشعراء إلاَّ نادرًا، وبالتحديد فى ثلاثة مواضع. فمرة قبل البدء فى شرح القصيدة، ومرة عند شرحه للبيت الثالث، والمرة الأخيرة عند شرحه للبيت السابع عشر، أما عدد الأبيات

فلم تتعد الثمانى أبيات. وهو بلا شك عدد قليل إذا قيس بمكانة الشعر فى نفوس العرب وإجلالهم له وتمثلهم لألفاظه وصوره ومعانيه!!

كما يلاحظ أن هذه المرات الثلاثة التى ذكر فيها استشهادات شعرية لم يذكر فيها اسم الشاعر ولا لقبه، إنما اكتفى بقوله: "وما أحسن ما قيل"... "قال الشاعر".

ولو تأملنا شرح البصروى لوجدنا - إضافة إلى الناحية اللغوية - يذكر أحيانًا - التوجيه الإعرابى لكلمة فى البيت، مثال ذلك:

عند شرح البيت رقم (٢٢) يقول: وقوله: «وتكون نجى، جملة معطوفة على الأولى. ولابد من تقدير ضمير مجرور رابط بين النعت وصاحبه أى به، ووقف على خبر يكون المنصوب بحذف ألف التنوين، وهى لغة معروفة»....

ويمكننا ملاحظة التوجيه الإعرابى فى شرحه لكثير من الأبيات.

وأحيانًا يلجأ البصروى للتوجيه الصرفى، كما فى شرحه للبيت رقم (٢١) إذ يقول: «والظفر بفتح الفاء: هو الفوز بالمطلوب، وهو مصدرظفر به وعليه، وظفره: إذا ألحقه. والغنج بفتح الغين والنون، وضم الغين وسكون النون هو: حسن الشكل. يقال: غنجت الجارية بالكسرغنجا بالفتح، وتغنجت فهى غنجاء من جوارغنج مثل حمراء من نساء حمر»....

وكما لجأ البصروى للنحو والصرف استعان أيضًا فى شرحه بالبلاغة، مثال ذلك عند شرحه للبيت رقم (١٠) يقول: "والانتساج: مطاوع النسج وهوالالتحام بحيث يكون المنسوجان كلحم واحد، وهو هنا استعارة لشدة لزوم المقادير للعبد، فكأنها كذلك ملتحمة به إذ لا انفكاك عنها ولا لها عنه. والمنتسج: الملتحم، وهوهنا العبد المقضى عليه".

فالناظم شبه العبد بسد النسجة من حيث كونه هدفًا ومحلا متغيرًا ظاهرًا وباطنًا بتلك المقادير المتعلقة به المتعاقبة عليه كتغير سدّ النسجة حالا ومآلا بما يرد عليه من الخيوط، فلا محيد له عما قدَّر الله عليه فى الأزل من سعة وضيق»....

هكذا ورد شرح البصروى شرحًا لغويًا نحويًا صرفيًا بلاغياً وفوق هذا كله صوفيًا. يعتنى بالجانب الروحى والتهذيبى أملا فى تخليص العباد من أدران نفوسهم. وسعيًا فى الارتقاء بهم فى عالم الروح الحقيقى.